



C

الرؤية الدعوية

شتنبر 2003



تقديم

حركة التوحيد والإصلاح هي حركة دعوة إلى الله عز وجل، وتكتل وتنظيم للإسهام في إقامة الدين، وهو عند الله الإسلام.

فهي دعوة إلى الإسلام جملة وتفصيلا، أصولا وفروعا، دعوة إلى تجديد فهمه ومعرفته ومعرفة أحكامه، ودعوة إلى التفقه فيه ونشر ثقافته، ودعوة إلى تصديق الإيمان به وتفعيله، ودعوة إلى الالتزام به والعمل به وبمقتضياته، ودعوة للدفاع عنه ومقاومة ما يصبه أو يتهده من محاولات إبعاده عن حياة الناس أو إبعاد الناس عنه.

فالدعوة عند حركة التوحيد والإصلاح، هي الإطار الأوسع لأعمالها بل هي أساس وجودها ومنطلق عملها.

وإذا كانت الدعوة تكليفا شرعيا منصوبا عليه وعلى وجوبه في نصوص القرآن والسنة، فإن ممارستها في مختلف الظروف والأحوال، تحتاج إلى نظر واجتهاد وإلى تقدير وتدير، وترجيح واختيار... وكل ذلك في نطاق هدي النصوص الشرعية وتوجيهاتها.

كما أن ما يعرفه عمل الحركة من تطور وتنوع وتخصص، قد أصبح يستدعي تثبيت الصفة الدعوية الرسالية للحركة ولكافة أعضائها وفي كافة أعمالها كما يستدعي توضيح الأولويات الدعوية وسمات الخطاب الدعوي. وهذا ما نعنيه بـ "الرؤية الدعوية" التي نقدمها اليوم للقراء عامتهم وخاصتهم من أعضاء الحركة وغيرهم، وهي جزء من المنهج العام لحركة التوحيد والإصلاح، كما سطره ميثاق الحركة؛ فكان لا بد من وضع هذا الجزء إلى جانب الأجزاء الأخرى، حتى تكون دعوتنا على بصيرة ونكون على بصيرة من أمرنا [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ] ¹.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل صالحا مقبلا، وأن يبارك فيه وينفع به.

اللهم آمين والحمد لله رب العالمين.

¹ - سورة يوسف، الآية 108.







يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيئَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لِمَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَهْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ هَبَّاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا [1].

وقال سبحانه: [وَالَّذِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُحْسِبُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ؟] [2].

وقال عز وجل: [وَالَّذِي نَمُوذُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ] [3].

وقال سبحانه: [وَالَّذِي نَمُوذُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ] [4].

وقال سبحانه: [وَالَّذِي مَدِينُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ] [5].

وقال سبحانه: [وَادْعُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا؛ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا؟ يَا أَبَتِ إِنِّي فَقَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا

1 - سورة نوح، الآيات 1-20.

2 - سورة الأعراف، الآيات 65-68.

3 - سورة هود، الآية 71.

4 - سورة الأعراف، الآيتين 80-81.

5 - سورة الأعراف، الآيتين 84-85.



لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبْتَ لِمَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا، يَا أَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا¹].

وهكذا تتابع الدعوة المرسلون إلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان من أول ما أنزل الله عليه [يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ] فقام يدعو حتى آخر لحظة من حياته. وكان أكثر ما قام به في حياته هو الدعوة إلى الله تعالى، وكانت أبرز سنة من سننه هي الدعوة، وكان عنوان رسالته ومنهجه هو الدعوة [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي]².

وجوب الدعوة إلى الله

بعد وفاة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وانقطاع النبوة، آلت أمانة الدعوة كاملة إلى الأمة الإسلامية بمخاصتها وعامتها.

والحق أن أمانة الدعوة قد حملها المسلمون وشاركوا في أدائها منذ حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي كثير من الحالات نجد أن أول تكليف كان يقوم به المسلم الجديد هو الدعوة إلى الإسلام. فإذا كان المسلمون قد تحملوا رسالة الدعوة بمختلف أشكالها ومتطلباتها في حياة رسول الله وبأمره وتوجيهه، فإن تحملهم إياها بعد غيابه أوجب وأكد وألزم.

وقد ورد في وجوب الدعوة على المسلمين نصوص عديدة صريحة في القرآن الكريم منها:

¹ - سورة مريم، الآيات 41-45.

² - سورة يوسف، الآية 41.

قوله تعالى: [وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] ¹، ففي هذه الآية أمر للمسلمين بأن يدعوا إلى الخير ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وأن ذلك هو سبيل الفلاح والمفلحين.

وقوله تعالى: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] ²، فقد وصفت الآية عامة المؤمنين والمؤمنات بصفتين بارزتين وهما الولاء فيما بينهم، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي الجمع بين هاتين الصفتين تنبيه على ما بينهما من تلازم وتكامل. فالولاء بين المؤمنين والمؤمنات يشجعهم ويقويهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن قيامهم بهذه الفريضة يقوي ولاءهم وتعاونهم ورباطتهم. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو صيغة من صيغ الدعوة.

قوله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي] ³، فالآية صريحة في كون القيام بواجب الدعوة هو سبيل رسول الله وكل من آمن به واتبع طريقه. فكل من اتبعه، وكل من كان من أتباعه فهو يدعو بدعوته، ويدعو إلى ما دعا إليه، وهذه سبيله.

وقوله عز وجل: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ] ⁴، ففي الآية أمر من الله تعالى للذين آمنوا بأن يكونوا أنصارا لله. والأمر يقتضي الوجوب. فكل المؤمنين مأمورون بأن يكونوا أنصارا لله. ونصرة الله إنما هي نصرة دينه عقيدة وشرعية،

¹ - سورة آل عمران، الآية 104.

² - سورة التوبة، الآية 71.

³ - سورة يوسف، الآية 108.

⁴ - سورة الصف، الآية 14.

بتبليغه والدعوة إليه والدفاع عنه. وقد وضع الله تعالى طبيعة هذه النصرة التي أمر بها بالإحالة على نموذج الحواريين مع نبيهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. وقد كان الحواريون أنصارا لله ولرسول الله من خلال حمل رسالته وتبليغ دعوته إلى الناس. وقد أمرنا الله -نحن المسلمين- أن نكون مثلهم. وبهذا يكون المسلمون جميعا بمثابة الحواريين، إلا من أبى.

وقال عز من قائل: [وَالْعَصْرُ؛ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفَرٍ خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَلَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَلَّوْا بِالصَّبْرِ] ¹. وما التواصي بالحق والصدق في الآية إلا وجه من وجوه الدعوة. وكذلك التواصي بالصبر. ومعنى تواصي الناس بالحق وبالصبر على الحق، أن يدعو بعضهم بعضا إلى التمسك بالحق، وإلى العمل بمقتضاه وإلى اجتناب الباطل وعدم السير في خطاه، وأن يدعو بعضهم بعضا إلى الصبر على ذلك وتحمل مستلزماته بحسب القدرة والإمكان. كما أن الدعوة جزء من العمل الصالح الوارد في الآية. فمن قام بالدعوة قام بعمل صالح.

وقد حفلت نصوص السنة أيضا بالحث على الدعوة والتحذير من تركها ومن ذلك مثلا:

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ" ².

¹ - سورة العصر، الآيات 1-3.

² - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالتَّصَحُّحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ¹.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"². والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الدعوة إلى الله تعالى.

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ"³.

وفي الحديث

أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا وَقَعَ فِيهِمُ النِّقْصُ كَانَ الرَّجُلُ فِيهِمْ يَرَى أَخَاهُ عَلَى الدَّنْبِ فَيَنْهَاهُ عَنْهُ فَإِذَا كَانَ الْعَدُوُّ لَمْ يَمْنَعَهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكْيَلَهُ وَشَرِيبَهُ وَخَلِيطَهُ فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ فَقَالَ: [لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ] فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ [وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ]

¹ - رواه الإمام البخاري رحمه الله.

² - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

³ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْمِعُونَا] قَالَ: وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ: "لَا حَتَّى تَأْخُذُوا عَلَيَّ يَدِ الظَّالِمِ فَتَأْطُرُوهُ عَلَيَّ الْحَقُّ أَطْرًا"¹.

فهذه النصوص وغيرها ناطقة صريحة بنفسها في أن الدعوة إلى الله تعالى، وإلى الإيمان به وتعظيمه وعبادته وطاعته، وإلى اتباع كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فريضة من فرائض الإسلام؛ بل هي تشمل في طياتها فرائض علة، تمثل وجوها وفروعا للفريضة الأم، وذلك كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين، ودلالة الناس على الخير وحثهم عليه، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، كما أنها ناطقة بأن تراجع الدعوة أو تركها يؤدي مباشرة إلى تراجع الدين والتدين نفسه.

وجوب الدعوة على جميع المسلمين

والمأمل في النصوص المذكورة يلاحظ أنها جاءت كلها بصيغ العموم، وليس فيها خصوص ولا تخصيص. فليس القيام بالدعوة خاصا بالعلماء، أو بالأمرء، أو بالوجهاء، أو الخطباء والبلغاء، بل هو عام لجميع المسلمين.

فكل من علم شيئا من الدين ومن الخير ومن الحق، دعا إليه وحث عليه، رجلا كان أو امرأة، كبيرا أو صغيرا، سواء كان عالما أو غير عالم، وسواء كان قويا أو ضعيفا، أو اعتبر وجيها أو ضعيفا. فمن واجب كل واحد أن يدعو إلى الحق وإلى المعروف، وأن ينهى عن الباطل والمنكر، وأن ينصح بما يراه نافعا ولازما، وأن يحذر مما يراه سيئا ووخيفا.

¹ - رواه الترمذي رحمه الله

نعم هناك شروط للدعوة الناجحة وللداعية الناجح. وصحيح أن الداعية كلما كان أعلم وأحكم كان أقوى وأنجح في دعوته. لكن القيام بالدعوة لا يشترط فيه أن يكون الداعية من العلماء المتبحرين في الشريعة والعارفين بدقائقها بل يدعو كل مسلم بما علم، وكلما دعا أكثر تعلم أكثر. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً"¹. فلو لم يكن لأحد من العلم إلا آية واحدة لوجب عليه تبليغها. وكذلك من يعلم حديثاً واحداً أو حكماً واحداً. وكما أنه لا يقال للمسيء صلواته دع عنك الصلاة، بل يقال له أعد صلواتك، حتى يتقنها أو يحسنها -مع أن للصلاة شروطاً حقيقية لا تصح إلا بها- فإنه لا يقال لمن ليس عالماً أو لمن أخطأ في تبليغ الدعوة دع عنك الدعوة بل يقال له تعلم دينك أكثر وأحسن الدعوة إليه.

فضل الدعوة وثوابها

إن أعظم شهادة في فضل الدعوة هي شهادة القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى: [وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ] ²، ولعل أهم فضل وشرف يناله القائم بالدعوة هو أنه يشارك الرسل فيما أرسلوا به، فيكون بالدعوة من خلفائهم وورثتهم. فقد بعثهم الله دعاة هداة، مبشرين ومنذرين، ناصحين ومحذرين، أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر [أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ] ³.

فالقيام بالدعوة والجهاد بها وفي سبيلها يمنحنا شرف التشبه بالرسل ومشاركتهم في أبرز صفاتهم وأخص خصائصهم. ومن تشبه بقوم فهو

¹ - رواه الإمام البخاري رحمه الله.

² - سورة فصلت، الآية 33.

³ - سورة الأنعام، الآية 90.

منهم، فليُنظر كل واحد بمن يتشبهه، ومع من يريد أن يكون. كما يعطينا شرف التشبه بخاتم الأنبياء والمرسلين وإمامهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه القرآن الكريم بقوله: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَذَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا]¹.

ونظرا إلى أن طريق الدعوة والجهاد في سبيلها هو طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حذر القرآن الكريم المسلمين من التخلف عن رسول الله والرغبة بأنفسهم عن نفسه، لأن في ذلك تفويتا لأجر عظيم وفضل عميم، قال تعالى: [مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يُنْفِثُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَضَلُّونَ مَوْضِعًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِعُّ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْضَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]².

وقد بينت السنة النبوية صورا من هذا الأجر وعددت مظاهره كما ورد في الحديث النبوي الشريف حين قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في حصار خيبر بعد أن رفع الراية إليه وأوصاه أن يدعو يهود خيبر إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم: "قَوِ اللَّهَ لِأَنَّ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"³.

¹ - سورة الأحزاب، الآيتان 45-46.

² - سورة التوبة، الآيتان 120-121.

³ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

وشبَّه به قوله صلى الله عليه وسلم: "لَعْدُوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"¹.

وقال عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لِيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ"².

ومن هذا الثواب الكريم ما أخبر به الصادق المصدوق بقوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا"³، ومثله أيضا "مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أُجْرِ فَاعِلِهِ"⁴.

ومعنى هذا أن من يدعو غيره إلى الخير وإلى أي عمل صالح، له نوعان من الأجر، أجر على مجرد عمله هو وعلى دعوته وإرشاده غيره، جزاء له على ما دعا وهدى. فيعطيه الله تعالى على ذلك ما شاء من فضله، حتى إنه قد يكون أفضل مما تطلع عليه الشمس. ونوع آخر من الأجر يكون بقدر ما نتج عن دعوته من استجابة واستقامة ومن عمل صالح فيكون للداعي من الأجر ما يعادل أجور العاملين بفضل دعوته وإرشاده. فهذا أجر يمكن أن يظل مفتوحا يتزايد ويتضاعف إلى أجل غير مسمى وإلى حد لا يعلمه إلا الله. فهو نوع من الصدقة الجارية، إلا أنه قد يتضاعف بما لا يكون في الصدقة الجارية بحسب تأثيراته في الناس.

وهذا من المعاني المشار إليها في قوله تعالى: [إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ]⁵، فالله تعالى يكتب لنا -أو علينا- الأعمال التي قمنا بها، ويكتب

¹ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

² - رواه الترمذي رحمه الله.

³ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

⁴ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

⁵ - سورة يس، الآية 11.

لنا - أو علينا- أيضا الآثار الناجمة عن أعمالنا مما قام به غيرنا، مهما امتدت وتطاول بها الزمن. وكما قال الشاعر:

والمرء أتباعه في ميزانه *** فأقدر بذأ قدر النبي محمد

فالأعمال الدعوية التي تُغير الناس، وتحولهم عن المعاصي والمنكرات وتوجّه أعمالهم إلى الخيرات والطاعات، يستمر من عند الله أجرها ما استمر أثرها، حتى لو انتقل ذلك من شخص إلى غيره ومن جيل إلى غيره. ولهذا نستطيع أن نقول على غرار قوله صلى الله عليه وسلم "أجرك على قدر نصيبك"¹، نقول لكل قائم بأعمال الدعوة "أجرك على قدر أثرك".

الوظيفة الدعوية بين الوجود والمنشود

جعل ميثاق حركة التوحيد والإصلاح "الدعوة إلى الله تعالى" من أول مبادئ الحركة ومنطلقاتها. كما اعتبرها من "أشرف أنواع الجهاد وأصل كل خير وصلاح" و "فريضة على كل مسلم من أبناء هذا الوطن يريد أن يتفقه في دينه ويعمل به ويدعو إليه".

وحيثما فصل "الميثاق" مجالات عمل الحركة وأعضائها جعل في مقدمتها "الدعوة الفردية"، ثم "الدعوة العامة"، ثم "العمل الثقافي والفكري"، وهو شكل آخر من أشكال الدعوة العامة.

وتسعى الحركة باستمرار إلى إعادة الاعتبار للدعوة عند الحركة أفرادا ومؤسسات وجعل رسالتها في المجتمع الإسهام في إقامة الدين فرديا وجماعيا.

¹ - متفق عليه.

والعمل الدعوي أحد الأركان الأساسية اللازمة للقيام بهذه الرسالة، وهو ما دفعها إلى جعل الدعوة إحدى وظائفها الأساسية إلى جانب التربية والتكوين.

غير أن أداء مستلزمات هذه الرسالة والاضطلاع بها على وجهها المطلوب لا يقتصر أمره على تنظيم الحركة بل يشمل أعضائها أينما حلّوا وارتحلوا بما في ذلك أولئك الذين اتجهوا إلى مجالات أخرى من مجالات العمل مثل العمل السياسي والنقابي والاجتماعي.

ذلك أن الدعوة ليست اختصاصا لبعض الأفراد أو بعض اللجان، بل هي للجميع وعلى الجميع أينما حلّوا أو ارتحلوا، ومهما كانت لهم من أعمال أو اختصاصات.

غير إن ترسيخ هذه الرؤية وترجمتها عمليا يقتضي إزاحة مجموعة من العوائق الذاتية الفكرية والنفسية، فضلا عن مغالبة العوائق الخارجية، ومن ذلك:

ضعف الوعي بأهمية الدعوة

إن التقصير الذي أصبح شائعا في صفوف كثير من أبناء الحركة الإسلامية في القيام بواجب الدعوة إلى الله والدعوة إلى عبادته، راجع في جزء كبير منه إلى ضعف في الوعي بأهمية الدعوة ومكانتها، وكونها أصل كل خير وإصلاح في المجتمع وأن أي نقص أو تراجع في الدين أو التدين إنما منشؤه في المقام الأول تقصير في القيام بواجب الدعوة.

ويرجع ضُمور الإحساس بأهمية الدعوة في جزء منه إلى التأثير بمناهج العمل الوضعية التي تعطي الأولوية في الإصلاح إلى تغيير ما بـ"الناس" على تغيير ما بـ"أنفسهم" خلافا لمنهج الإسلام الذي يؤكد على عكس ذلك كما في قوله

تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) ¹. وخلافاً للمنهج الدعوي النبوي القائم على أساس أن كل خير وإصلاح ينبني على استجابة الفرد لنداء الإيمان واستقامة العمل والسلوك على مقتضى الإسلام، وأن هذه الاستجابة تنطلق من داخل الإنسان نفسه ومن انشراح الصدر لخطاب القرآن وليس من تغيير الأوضاع أو فرض الإيمان بقوة السلطان. ولذلك حينما خيّر النبي صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً ملكاً - أي نبياً له سلطة سياسية يفرض بها ما يريد على المدعوين - وبين أن يكون عبداً رسولاً اختار الطريق الثاني، أي طريق الدعوة والرسالة، وطريق التذكير لا طريق السيطرة كما في قوله تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) ². وإن وضوح هذا الأمر لدى الدعاة من شأنه أن يدفعهم للاضطلاع بمسؤولية البلاغ المبين باعتباره أولاً مناط تكليف الداعية وبه يلقي عن نفسه التبعة بغض النظر عن استجابة الناس أو تطبيقهم أو عدم تطبيقهم لأنظمة الإسلام في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو في غيرها من المجالات. وباعتباره ثانياً المنهج الأسلم للإصلاح الذي يقرره الإسلام.

ضعف الحوافز الإيمانية

ومن بين أسباب تضاؤل الإحساس بأهمية الدعوة والقيام بها في كل الأحوال ضعف الحوافز الإيمانية. إن الدعوة هي نتيجة مباشرة لقوة إيمان الداعية ويقينه بما يؤمن به، كما أنها ترجمة عملية للإيمان، إذ الإيمان الحق يلزم عنه ضرورة الدعوة إلى الحق والدعوة إلى التواصي بالصبر على الحق ومقتضياته في النفس والسلوك وفي العلاقة بالآخرين. والإنسان المؤمن الذي يذوق حلاوة الإيمان ويرى غيره محرومين

¹ - سورة الرعد، الآية 11.

² - سورة الغاشية، الآيتان 21-22.

من بركته في حياتهم، وبحكم أنه يجب لأخيه ما يحبه لنفسه، لا يملك أن يقعد عن واجب الدعوة وأن يتصالح مع واقع المنكرات ويتطبع معها دون أن ينهض للقيام بالدعوة إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ضعف المبادرة الذاتية والحوافز التنظيمية

وينتج عن ضعف الحوافز الإيمانية ضعف المبادرة الذاتية إلى الدعوة. إن المفروض في الإنسان المؤمن أن تتحول الدعوة إلى جزء لا يتجزأ من حياته وحركته وأن يصطحبها حيثما حل وارتحل بغض النظر عن الانتماء أو التوجيه التنظيمي. فالدعوة إلى الله هي القضية الثابتة والبرنامج الذي لا يتغير مهما نشطت التنظيمات الحركية أو خملت، ومهما توفرت شروط ملائمة للعمل أو لم تتوفر.

على أن ضعف التحفيز التنظيمي والتوجيه إلى القيام بواجب الدعوة والتذكير به باستمرار، وتهيئ مناخ دعوي عام بالشكل الذي تتحول به الدعوة إلى سلوك يومي وثقافة شائعة لدى أبناء الحركة وداخل المجتمع على العموم، هو من عوامل ضعف القيام بواجب الدعوة على الوجه المطلوب. وهو ما يوجب على الحركة باستمرار إصدار التوجيهات والبرامج، وتوفير المناخ العام الذي يقوي البواعث الإيمانية ويساعد على النهوض بواجب الدعوة، بحيث تصبح ثقافة عامة سارية وسلوكا تلقائيا داخل الحركة يدفع إلى القيام بواجب الدعوة.

الزعة الانتقائية و النخبوية في الدعوة

الأصل في الدعوة أنها خطاب عام ومفتوح للناس كافة غنيهم وفقيرهم كبيرهم وصغيرهم أبيضهم وأسودهم مصداقا لقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)¹.

¹ - سورة سبأ، الآية 28.

ومن عوائق الدعوة تلك النزعة النخبوية التي تعززت بتقاليد العمل السري، والتي جعلت من الدعوة في كثير من الأحيان عملية انتقائية استدرجية تتوج - إن نجحت - بالانضمام إلى الجماعة والانخراط في التنظيم.

ولئن كان شيء من ذلك متفهماً في مراحل النشأة وظروف السرية والاحتياط، فإن من أفدح ما يمكن أن تصاب به الدعوة - وقد زالت تلك الظروف والاعتبارات - هو تغييب الدعوة بانفتاحها وعموميتها وتحويلها إلى ما يشبه البضاعة المحرمة، وخاصة في الوقت الذي تنطلق فيه الدعوات المضادة تكتسح أرضنا وسماءنا، وتخرق كافة حصوننا وتقصف كل مواقعنا.

وهم براءة الرزمة من واجب الدعوة

ومن العوائق في وجه الدعوة الاعتقاد بأن الدعوة لا تكون إلا من مستويات علمية معينة، أو أنها فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، وهو وهم باطل كما تبين ذلك نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن تجليات هذا الوهم داخل الحركة، التوهم بأن الدعوة قد صارت تخصصاً له أهله ومؤسساته، أي التنظيم العام أو قسم من أقسامه، وأن الانشغال بمجالات أخرى يُسقط عن العضو المنشغل داخل مجال من مجالات التخصص واجب الدعوة إلى الله. والواقع أن الدعوة واجبة على الجميع كما تبين، وأن التخصص في مجال من مجالات العمل لا يُعفي المسلم من القيام بالدعوة الفردية أو الدعوة العامة، بل ينبغي أن يصطحب كل عضو معه هم الدعوة أينما حل وارتحل، سواء داخل أسرته أو داخل عمله أو في علاقاته الاجتماعية العامة، كما ينبغي أن يصطحبه أيضاً داخل تخصصه.

طغيان الثقافة الدنيوية المادية

ومن العوائق في وجه الدعوة شيوع الثقافة المادية والدنيوية بفعل هيمنة الحضارة الغربية ونموذجها في الحياة وما يترتب عن ذلك من اضطراب في تقدير الأولويات. فشيوع النفسية الاستهلاكية عند المسلمين، وحتى عند فئات واسعة من أبناء الحركة الإسلامية، جعلت كثيرين منهم يُفترطون في رسالتهم الدعوية ويتقاعسون عن أدائها على الوجه المطلوب، لأنهم يشغلون معظم همهم ووقتهم بالجري وراء مزيد من الكماليات، مما يجعلهم الدعوة لا يحتل في نفوسهم وحياتهم سوى مكانة ثانوية وأهمية هامشية.

شيوع السلبية والإنانية

ومن آثار شيوع الثقافة الدنيوية أو إلى جانبها، خيمت نفسية سلبية أنانية على المجتمع، بحيث صار كل واحد ينكفي على خويصة نفسه وبعض شؤون أهله، لا يبالي بما وراء ذلك إلا من باب الفضول والفرجة. وهذا مسلك يبدو مُريحاً على المستوى الفردي وعلى المدى القريب، ولذلك فإن أكثر الناس يميلون إليه ويؤثرونه على سواه. لكن عواقب هذا السلوك وخيمة في الدنيا والآخرة، على الفرد وعلى الجماعة.

الخطاب الدعوي مواصفاته وألوياته







ليس المقصود بالخطاب القناة اللغوية الحاملة للدعوة بل إنه أشمل من ذلك. فهو يتضمن أيضاً المبادئ والقواعد التي يراعيها الداعية في مخاطبته للمدعوين، كما يتضمن نوع العلاقة التي يقيمها الداعية مع المدعو، وطريقة عرض الدعوة، ومجادلة المدعوين وأساليب التأثير فيهم واختيار أنسب المداخل إلى أنفسهم.

تبعاً لذلك فإن طبيعة الخطاب الدعوي وصفاته هي جزء من الدعوة المراد تبليغها ومن القيم والآداب التي يراد بثها. فمواصفات الخطاب الدعوي ليست شيئاً خارجاً عن الدعوة نفسها، وليست مجرد وسيلة بحتة بحيث تنحصر قيمتها في تبليغ الدعوة وقبولها لدى الجمهور المخاطب بها، بل إن التحلي بها هو نفسه دعوة وقدوة.

مواصفات الخطاب الدعوي

إذا كان الخطاب الدعوي -من حيث مواصفاته ومستوياته- قد يختلف بحسب الداعي والمدعو، وبحسب البيئة والظروف القائمة والعبارة، وحسب الوسيلة المعتمدة، فإن ذلك لا ينفي وجود مواصفات عامة ومشاركة بين جميع الحالات أو أغلبها. ونعرض فيما يلي لأهم تلك المواصفات الواجب اعتمادها.

1- خطاب إيماني

الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والإيمان بضرورة عبادته والخضوع له، هذا الإيمان هو أساس كل شيء في الإسلام، وهو أهم شيء في حياة الإنسان. ولذلك فإن الدعوة، التي تتناول قضايا وأموراً لا حد لها ولتنوعها، تسمى اختصاراً "الدعوة إلى الله"،

كما قال تعالى: (وَنَحْنُ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ)¹، مع أنه قال في الآية الأخرى (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)²، فالدعوة إلى الله دعوة إلى كل خير، والدعوة إلى الخير هي دعوة إلى الله، لأن الله تعالى هو مصدر كل خير ويأمر بكل خير (يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَبَدُوا رَبَّهُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)³. ومن هنا فإن من أهم ما يجب استحضاره في الخطاب الدعوي الإسلامي قضية الإيمان ومقتضياته، وربط سائر الموضوعات الدعوية بها. فسواء كان موضوع الدعوة عبادات أو معاملات أو عادات، وسواء كان الموضوع أخلاقيا أو تجاريا أو اجتماعيا أو سياسيا أو تربويا، أو غير ذلك، فإن له صلة بالله وبالإيمان بالله، كما له صلة بالدار الآخرة وما فيها من حساب و ثواب وعقاب.

وهذا الربط هو أولا من باب وضع الأمور في نصابها وربط الفروع بأصولها. ولكن الأهم من هذا هو أنه منهج الخطاب القرآني نفسه. ذلك أن القرآن الكريم قلما يتحدث عن قضية تشريعية أو تاريخية أو خلقية أو طبيعية دون أن يُذكر من خلالها بالله تعالى وبصفاته العلى، وبالدار الآخرة ومنزلتها وما فيها. ونكتفي من ذلك بهذا المثال، قال تعالى: (وَإِذَا هَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَابْكُنَّ أَجْلُمُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَى بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَنْزَكَرَ لَكُمْ وَالصَّغُرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)⁴.

¹ - سورة فصلت، الآية 33.

² - سورة آل عمران، الآية 104.

³ - سورة الحج، الآية 77.

⁴ - سورة البقرة، الآية 230.

2- خطاب واضح

إن من أهم مواصفات هذا الدين الذي جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه داعياً وبرسالته مبشراً ونذيراً هو الوضوح. وهكذا وصف سبحانه وتعالى ما جاء به نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بـ "البينة" في قوله تعالى: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)¹.

كما وصفه أيضاً بأنه برهان كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا)².

ووصفه أيضاً بأنه بيان كما في قوله تعالى: (هَذَا بَيِّنٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)³. كما جاء من أسماء القرآن "الفرقان" كما في قوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)⁴.

غير أن وصف القرآن بأنه "بينة" و"بيان" و"فرقان" في ذاته، لا يلزم منه أن يكون الداعي إلى ما جاء به واضحاً مبيناً، لذلك كان على الداعية أن يستمد من بيان القرآن ووضوحه وضوحاً في خطابه الدعوي، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم والدعاة من بعده بأن يكون بلاغهم مبيناً كما جاء في قوله تعالى:

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)⁵، لِمَا للبيان من أثر في إبراء ذمة الداعي

وإقامة الحجة على المدعو.

¹ - سورة البينة، الآية 1.

² - سورة النساء، الأيتان 174-175.

³ - سورة آل عمران، الآية 138.

⁴ - سورة الفرقان، الآية 1.

وحرصاً منه صلى الله عليه وسلم على الوضوح والبيان كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا¹، كما كان كلامه صلى الله عليه وسلم كلاماً فصلاً يفهمه كل من يسمعه²، فتبين من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد تحقق بلاغه بالبيان في أبهى صورة وأكملها، والدعاة الذين يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم ويريدون التآسي به في دعوته وأن يكونوا على مثل بصيرته فيها يجب أن يراعوا صفة البيان والوضوح في خطابهم الدعوي.

3- خطاب رأفة ورحمة

خطاب الدعوة خطاب رحمة ورأفة، هكذا كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أعلن عن ذلك الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم قائلاً: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)³، وفي قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)⁴. وهي الحقيقة التي أكدها عليه السلام حينما قال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ"⁵.

ولذلك وجدنا أن سيرته ومواقفه تفيض رأفة ورحمة بالناس. وحتى حين كان المشركون يشتمون عليه في الإيذاء والإهانة، كان يقابل ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم "اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". وقد بلغ من شفقتة على الناس ومن حسرته وأسفه على حالهم، ومن شدة حرصه على إيمانهم وصلاحهم، إلى حد أن الله

¹ - سورة النور، الآية 54.

² - رواه الإمام البخاري رحمه الله.

³ - رواه أبو داود رحمه الله.

⁴ - سورة الأنبياء، الآية 107.

⁵ - سورة التوبة، الآية 128.

⁶ - أخرجه الدارمي رحمه الله في السنن.

تعالى نبّهه ووجهه إلى أن يُخفف من ذلك على نفسه. قال تعالى (فَلَمَّا كَبَخُمُ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)¹، وقال أيضا: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)²، وقال أيضا: (فَلَمَّا تَذَهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنْ لِلَّهِ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)³.

وفي الحديث الشريف قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفْلُتُونَ مِنْ يَدِي"⁴. فهذا هو المثل الأعلى للدعاة في دعوتهم (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)⁵.

إن القيام بالدعوة هداية لا نكاية. والقائم بالدعوة ليس شرطيا ولا رجل درك، وإنما نحن كما قال الشيخ حسن الهضيبي رحمه الله "دعاة لا قضاة". والداعية عليه أن يجعل من دعوته فرجا لا حرجا على الناس. فهو يتقدم إليهم ويخاطبهم ليفرج عنهم لا ليحرجهم؛ يريد بذلك الإصلاح والعلاج ما استطاع وليس الإذانة والتبكييت.

4 - خطاب معتدل متوازن

الاعتدال والتوسط أصل من أصول الإسلام وسمة من سماته. والاعتدال هو المسلك الذي يتحاشى الإفراط والتفريط، ويكون بين ذلك قواما، كما قال تعالى في

¹ - سورة الكهف، الآية 6.

² - سورة الشعراء، الآية 3.

³ - سورة فاطر، الآية 8.

⁴ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

⁵ - سورة الأحزاب، الآية 21.

صفات عباد الرحمن (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)⁶⁷، وقال سبحانه في الآية الأخرى (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهُمَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعَهُ مَلُومًا مَّحْسُورًا)⁶⁸. وليس هذا خاصا بالمال وإنفاقه، بل في كل شيء تفريط وإفراط واعتدال. فالاعتدال هو المنزلة التي يقع على جانبيها أو على طرفيها الإفراط والتفريط، أو الإسراف والتقتير. وقد جاء عن بعض التابعين "الحسنة بين سيئتين" أي أن الحسنة تقع بين سيئتين، هما سيئة الإفراط و سيئة التفريط.

والتفريط في الدين يكون بترك الواجبات والالتزامات أو إقرار تركها. كما يكون بفعل المحرمات أو إقرار فعلها. ويشتد التفريط أو يخف بمقدار ما تم تركه أو إقرار تركه من الواجبات والالتزامات، وكذلك بمقدار ما تم فعله أو إقرار فعله من المحرمات.

ويكون التفريط كذلك بالتوسع في فعل المكروهات والتمادي في ترك السنن والمندوبات. ولكن التفريط هنا أقل سوءاً وأخف ضرراً مما في النوع الأول. فأما إذا وقع لأسباب ودواع معتبرة فليس بتفريط، بل يدخل في باب الموازنة، التي هي مسلك من مسالك الاعتدال.

وأما الإفراط في الدين فهو لزوم ما لا يلزم أو إلزام الناس به، وكذلك تحريم ما ليس بحرام و منع الناس منه، بدعوى حرمة.

فليس من الاعتدال إقرار الناس على تفريطهم فيما فرض الله عليهم، ولا على انتهاكهم لما حرم الله عليهم، كما ليس من الاعتدال المبالغة في التحريم، إلى حد تحريم المكروهات، وربما بعض المباحات. بل حتى المحرمات المختلف في تحريمها

¹ - سورة الفرقان، الآية 67.

² - سورة الإسراء، الآية 29.

اختلافاً معتبراً بين العلماء، لا ينبغي الجزم بتحريمها. وتحريمها مطلقاً نوع من الإفراط، كما أن استباحتها مطلقاً نوع من التفريط. والإفتاء فيها موكول إلى العلماء، بما ترجح لديهم بعلم ودليل. وقضايا الخلاف المعتبر ليست موضوع أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر بل هي موضوع حوار وبحث وتحقيق مع أهل الاختصاص.

وبعض الدعاة والوعاظ يظنون أن التشدد قوة في الدين وزيادة في الورع والتقوى، كما يظن آخرون أن الترخيص في كل شيء والتساهل في كل شيء، هو ما جاءت به الشريعة السمحة حتى أصبح وصف (السمحة) يعني عند بعض الناس إمكانية التجاوز والإلغاء لأي حكم لا يوافق أفكارهم وثقافتهم ورغباتهم.

والحق أن قوة الدين وسماحة الشريعة إنما يتحققان بالعدل والاعتدال، ووضع كل شيء في موضعه، فالعزيمة حيث تجب العزيمة، والرخصة حيث يجب الترخيص أو يجوز، والتخفيف حيث خفف الشرع، والتجاوز محله فيما سكت عنه الشرع رحمة وعفوا.

ومن الاعتدال والتوازن ترغيب الناس وفتح أبواب الأمل والرجاء لهم دون إغفال غضب الله وعقابه، وتخويفهم وإنذارهم دون تئيس ولا تقنيط من رحمة الله. وكما قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: (ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقه؟ من لم يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله ولم يترك القرآن إلى غيره، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في تفقه ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر)□.

¹ - عن كتاب أخلاق العلماء لأبي بكر الأجرى، تحقيق الدكتور فاروق حمادة ص: 91.

5. خطاب متدرج

والتدرج صفة كونية وتشريعية، راعاها الخطاب الدعوي في عهد النبوة. ففي مجال التشريع، نزل القرآن على مكث منجما بحسب أحوال الجماعة المسلمة وحاجاتها وتطورها. تقول عائشة رضي الله عنها: "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةُ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا تَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا"¹.

وفي تبليغ الدعوة أكد النبي صلى الله عليه وسلم على مراعاة التدرج في الخطاب الدعوي ومراعاة الأولويات وعدم الانتقال إلى الخطوة الموالية إلا بعد تثبيت التي تسبقها. وكان يوصي من يرسلهم إلى القيام بالدعوة أن يتدرجوا في الدعوة كما فعل حينما بعث معاذًا إلى اليمن فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ يَذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ يَذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ يَذَلِكَ فَيَاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ".

و كان صلى الله عليه وسلم يراعي أحوال المدعوين ويراعي ظروفهم ويتدرج معهم انطلاقًا من وضعهم في نقلهم خطوة خطوة في طريق الالتزام بأحكام الإسلام. ومن هذا الباب ما فعله صلى الله عليه وسلم من ترك بناء

¹ - رواه الإمام البخاري رحمه الله.

الكعبة على قواعد إبراهيم مخافة أن يثير فتنة عند قوم لم يتمكن الإسلام من نفوسهم بسبب هدم الكعبة وبنائها من جديد كما جاء في الصحيح أنه قال لعائشة رضي الله عنها: "لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم".

والتدرج ليس إقراراً للناس على تفريطهم فيما فرض الله عليهم ولا على انتهاكهم لما حرم الله عليهم وإنما هو معالجة حكيمة أو تغاض أو ترخيص إلى حين، فهو من الاعتدال الذي يقع بين سيئتين سيئة الاستعجال وسيئة الإهمال.

6. خطاب إيجابي

ونعني بالإيجابية الانطلاق من حسن الظن بالناس وتغليب الأمل والتفاؤل والرجاء وتجنب اليأس والتئيس، وفي الحديث الشريف: "من قال هلك الناس فهو أهلكهم" فالخير باق كثير، والاستعداد له أكثر، وباب التوبة يسع الناس جميعاً، ورحمة الله وسعت كل شيء.

فلا ينبغي للقائم بالدعوة أن يعتقد بأحد من الناس أنه لا أمل فيه أو لا خير يرجى منه، أو أنه ميئوس من حالته، أو بعيد عن الهداية والاستقامة، والميئوس منه لا يعلمه إلا الله، وليس من شأننا أن نحكم على مصائر الناس، بل شأننا أن نزن الخير ونرجو ونتوقع الخير، وما سوى ذلك فأمره إلى الله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ) [١].

ونهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عن إساءة الظن بالناس وأمر بحملهم على ظاهرهم ماداموا يشهدون أنهم مسلمون فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

١- سورة القلم، الآية 7.

مَسِيلَ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا) [١].

قال الجصاص في تفسير الآية: (فحكّم تعالى بصحة إيمان من أظهر الإسلام وأمرنا بإجرائه على أحكام المسلمين وإن كان في المغيّب على خلافه).

وفي سبب نزول الآية ذكر أن سرية النبي صلى الله عليه وسلم لقيت رجلاً ومعه غنيمات له فقال: السلام عليكم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقتله رجل من القوم. فلما رجعوا أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: لم يقتله وقد أسلم؟ فقال: إنما قالها متعوذاً من القتل. فقال: هلا شققت على قلبه؟ وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديته إلى أهله ورد عليهم غنيماته".

وعن سعيد بن جبير فيما أورده ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) [٢]، قال: (لم تكونوا مؤمنين فمن الله عليكم أي تاب عليكم).

ومن مستلزمات ذلك الإصرار على متابعة الدعوة وعدم اليأس من المدعويين أو الاكتفاء بالبلاغ الأول، كما ورد عن نوح عليه السلام في القرآن الكريم: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاً وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَفْسَحُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) [٣].

١- سورة النساء، الآية 94.

٢- سورة النساء، الآية 94.

٣- سورة نوح، الآيات 5-11.

ومن مقتضياته أيضا الحرص على تبليغ الدعوة رغم كل ما قد يظهر من حال المدعو من بعد عن الاستجابة. وفي بعث الله تعالى موسى وهارون إلى فرعون كما ورد في قوله تعالى: (اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ لَغَفْرٌ؛ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)؛ دلالة على عدم اليأس من أي أحد من المدعويين مهما كانت حاله، والإصرار على تبليغ الدعوة بما يستلزم ذلك من رفق ولين في الخطاب.

ومن مقتضياته أيضا أنه ليس لأحد - ولو كان من الدعاة ومن العلماء والفضلاء - أن يجعل نفسه فوق الناس أو أفضل منهم، وإن كانوا يظهرين له في حالة من الغفلة أو الجهل أو المعصية. فخفايا الناس وضمايرهم علمها عند الله. وكذلك عواقبهم وخواتمهم، وعواقبنا وخواتمنا عند الله، ومآلاتنا الأخروية عند الله. فمن اللازم إحسان الظن بالناس وإحسان الظن بربهم فيهم، ومخاطبتهم على هذا الأساس، والله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ)؛ وفي الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ"؛

والداعية التي يرى نفسه أفضل من الناس أو أن منزلته خير من منزلتهم، أو ينظر إلى الناس بعين التحقير والانتقاص، هذا الداعية يوجد على شفا هلكة إن لم يراجع نفسه ونظرته إلى نفسه وإلى الناس. ومن حكم بن عطاء الله السكندري:

¹ - سورة طه، الآيتين 43-44.

² - سورة الحجرات، الآية 11.

³ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

(لأنَّ تصحب جاهلا لا يرضى على نفسه خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه).

ومن الإيجابية أيضا إعطاء الأولوية للبحث عن جوانب الخير في المدعو لتنميتها لأن الأمر بالمعروف مقدم على النهي عن المنكر في التدرج بالمدعو نحو مزيد من التزكية.

7 - خطاب حكيم

قال الله تبارك وتعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)¹. لقد تضمنت هذه الآية الكريمة عدة أوصاف يجب أن يتسم بها الخطاب الدعوي:

- الدعوة بالحكمة
- بالموعظة الحسنة
- المجادلة بالتي هي أحسن

ووصف "الحكمة" المأمور به في هذه الآية يكاد يجمع سائر مواصفات الخطاب الدعوي، فهو يتضمن أن تكون الدعوة بعلم وعن بينة، فكل يدعو إلى ما علم وفي حدود ما علم. ويتضمن إثارة الموضوع المناسب لكل حالة، واستعمال الأسلوب المناسب مع كل واحد ولكل ظرف، ويتضمن التلطف والترفق، ويتضمن مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومستوياتهم، ويتضمن إنزال الناس منازلهم في الخطاب والمعاملة عند دعوتهم ...

وأما وصف "الموعظة الحسنة" فيقتضي مراعاة التأثير النفسي والعاطفي، فليس الجدل العقلي والمنطقي وحده الذي يؤثر في الناس ويقنعهم ويدفعهم إلى التجاوب

¹ - سورة النحل، الآية 125.

والقبول، بل الخطاب القلبي الوجداني له كذلك أثره البليغ. وفي الحديث الشريف عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: (وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيْونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ...)¹.

وأما المجادلة فهي من توابع الدعوة ولوازمها، فقلما يقوم أحد بدعوة غيره إلا وجد منهم من يناقشه ويجادله، أو يعارضه ويتحفظ عليه، فيكون مضطرا للمجادلة والمناقشة، بقدر ما يكون له من دعوة ونشاط دعوي، كما حكى الله تعالى عن سيدنا نوح مع قومه (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَاءَكُنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا)².

وبما أن الجدل عادة ما يجر إلى الأخذ والرد، وإلى نوع من المواجهة، وقد يجر إلى توتر وخصومة، فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحن من باب أولى وأحرى، بالتزام المجادلة "بالتي هي أحسن"، كما قال كذلك (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)³، وجماع القول في المجادلة بالتى هي أحسن أن يتحرى الجادل أحسن وأرقى ما يستطيعه في كيفية المجادلة وهيئتها ولوازمها. ومن ذلك التزام الهدوء و الأدب واجتناب الغضب والصخب، والحفاظة على الصلح والاعتدال، وتجنب الخضوع لحظوظ النفس ورغبتها في الظهور والانتصار أو التشفي والانتقام. فالداعية دائما لا يريد لمخاطبه ومجادله إلا الخير والهداية.

¹ - أخرجه الترمذي رحمه الله.

² - سورة هود، الآية 32.

³ - سورة العنكبوت، الآية 46.

أولويات الخطاب الدعوي

أولويات الدعوة والخطاب الدعوي منها ما هو ثابت دائم لا يتغير ولا يتأخر، ومنها ما هو ظرفي يمكن أن يتقدم أو يتأخر.

الأولويات الثابتة

والمراد بها أسس الدين وأركانه التي لا يمكن إقامة الدين إلا بها، بل لا يكون الدين ديناً إلا بها، وهي:

1- أركان الإيمان

ونقصد بها المعتقدات التي لا يكون أحد مؤمناً مسلماً إلا بها. فهذه لا بد أن تكون دائماً في مقدمة ما يهتم به الدعاة، فيذكرونها، ويذكرون بها، ويوضحونها، ويُقوِّون الإيمان بها.

ولعل أجمع نص جاء في تحديد أركان الإيمان وقضايه الأساس، هو حديث جبريل الذي جاء فيه "قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"¹.

ومن النصوص الجامعة في هذا الموضوع قوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) ²، وقوله: (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) ³.

ولا شك أن قضية القضايا وأساس كل أساس في أركان الإيمان هو الإيمان بالله جل وعلا وتوحيده في عبادته وعدم الإشراك به. ويندرج فيها ما هو معلوم من قضايا

¹ - رواه الإمام مسلم رحمه الله.

² - سورة البقرة، الآية 285.

³ - سورة البقرة، الآية 177.

ومعتقدات تفصيلية تتعلق بالله سبحانه. فلذلك يجب أن تحتل هذه القضية الأم الحيز الأعظم ضمن هذه الأولوية. ثم تأتي بقية أركان الإيمان وقضايه فتأخذ من الأهمية ومن الحيز ومن العناية، بقدر ما أولتها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، أو بحسب ما عند المخاطبين من احتياجات أو إشكالات أو شبهات.

على أن من أهم ما يجب التنبيه عليه في تناول مواضيع الإيمان (أو العقيدة، حسب اصطلاح المتأخرين) هو ضرورة تحاشي الوقوع في أساليب المتكلمين وطرقهم ومصطلحاتهم وتقسيماتهم، فهي أساليب جدلية ذهنية عقيمة، متأثرة - كما هو معلوم - بالفكر اليوناني ومجذليات الملل الأخرى.

يجب أن نتناول قضايا الإيمان بمنهج القرآن لا بمنهج اليونان، وهو منهج يجمع بين إقامة الحجة والبرهان، مع تحريك القلب والوجدان. وحجج القرآن تقوم على بديهيات العقل، وعلى آيات الله الملموسة والمحسوسة في الأنفس والآفاق. كما أن تحريكه للقلب والوجدان يعتمد على الفطرة وأصالة الإيمان في أعماق الإنسان.

ثم إن منهج القرآن في عرض قضايا الإيمان هو منهج عملي حيث يجعل من الإيمان وقضايه منبع أحوال وأفعال، لا مجرد تأملات ذهنية وأفكار نظرية. ولذلك لا يكاد يذكر الإيمان إلا ومعه قرينه وثمرته، العمل الصالح.

2- العبادات

جميع الأنبياء جاؤوا بعبادة الله، وكانت هي طليعة دعواتهم وأساس شرائعهم.

ومكانة العبادات في الإسلام لا تكاد تخفى على مسلم. حتى إن العلماء إذا أرادوا أن يُمثلوا لما هو معلوم من الدين بالضرورة، قالوا: كوجوب الصلاة والزكاة والصوم، والحج ...

إلا أنه مع التسليم بوجوب هذه العبادات وركنيتها في الدين لدى عامة المسلمين، فإنها كثيرا ما تتعرض للإهمال والإخلال، كما قال تعالى: (فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّمُورَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا)¹.

وإذا كان التضييع يصيب الصلاة - وهي أم العبادات وأكدها - فأَنْ يصيب غيرها أولى وأحرى.

على أن ما ينبغي الاهتمام به في أمر العبادات ليس هو - فقط - القيام بها وعدم تركها، بل هو جعل القيام بها عملاً واعياً حياً فعلاً. فكثير من المسلمين يصلون ويصومون ويحجون وقد يزكون، ولكن بدون روح وبدون حياة وبدون أثر يذكر. فهذا يجب تبصير الناس بحقيقة هذه العبادات وقيمتها ومقاصدها وثمارها المطلوبة، وأنه لا قيمة للعبادة إلا بقدر ما فيها وما ينتج عنها من ذلك.

وإذا كانت العبادات هي أولاً حق الله على العباد، فإنها أيضاً - حين تتم على حقيقتها وتكون حية مؤثرة - تكون أكبر حصانة لحقوق الناس فيما بينهم. ومن هنا فهي مدخل لإصلاح المجتمع ومعالجة علاته وتحسين علاقاته، مثلما هي صلاح وتزكية للقائمين بها.

3- الأخلاق

إذا كان جميع الرسل قد بُعثوا بمكارم الأخلاق، فإن خاتمهم سيدنا محمد -صلوات الله وسلامه عليه وعلى كافة المرسلين- قد بُعث بتمامها وكمالها (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)².

¹ - سورة مريم، الآية 59.

² - رواه الإمام مالك رحمه الله في موطنه.

ولما سمع أبو ذر الغفاري برسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أخاه ليستطلع له الأمر وقال له: "اركب إلى هذا الوادي -يريد مكة- فاسمع من قوله". فرجع فقال: "رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق".¹

وقبل أن يُبعث ويأمر بمكارم الأخلاق، كانت العناية الربانية قد هيأتها هو نفسه ليكون مثلاً أعلى في حسن الخلق ورفعة السلوك. فقد اشتهر -قبل بعثته- بالاستقامة والنزاهة والأمانة، حتى كان قومه يلقبونه بالأمين. ويوم نزل عليه الوحي -أول ما نزل- أوى إلى زوجته خديجة مضطرباً خائفاً على نفسه، قالت له رضي الله عنها: "كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الحق".

وإن الناظر في القرآن الكريم وخاصة منه ما نزل في السنين الأولى، أي في المرحلة المكية، يجد أن معظم القرآن المكي يتعلق بإصلاح المعتقدات وإصلاح الأخلاق. فحتى العبادات لم يكن لها في القرآن المكي إلا إشارات مجملية. أما الأخلاق والقضايا الخلقية فلها -إلى جانب قضايا الإيمان والتوحيد- الحيز الأكبر والذكر المفصل، سواء في وجهها الحمود المطلوب أو في وجهها المذموم المحرم. وهذه نماذج من القرآن المكي الذي نعنيه (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُمَّةً وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَئِينَ غَفُورًا وَآتٍ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا إِنْ الْمُبْذُرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ

¹ - أخرجه الإمام البخاري رحمه الله.

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورٌ وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ لِإِنْتِفَاءِ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لِمَنْ قَوْلًا
 مَيْسُورٌ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُجْهَا كُلَّ الْبَسْجِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا؛ إِنَّ
 رَبَّكَ يُبْسُجُ الرُّزُقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً
 إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
 وَمَاءً سَبِيلاً. وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا
 فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
 أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ
 ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ
 كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا. وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ كُوفًا.
 كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) □.

وقال أيضاً: (وَلِذَٰلِكَ قَالَ لِقَمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَكُلْمٌ
 عَظِيمٌ. وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي
 وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
 وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا
 كُنتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بَنِيَّ إِنَّمَا إِنْ تَكُنْ مِنْ خَرَدٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
 السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِنَايَ الْقِمِّ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ
 وَإِنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
 وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ
 صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) □.

1 - سورة الإسراء، الآيات 22-38.

2 - سورة لقمان، الآيات 13-19.

وهكذا لم يترك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة شيئاً من الفضائل والمواعظ إلا أمر به ورغباً فيه، ولم يترك شيئاً من الرذائل والفواحش إلا نهى عنه وحذراً منه.

على أن مما يزيد هذا الموضوع اليوم جلاء وأهمية، ما تشهده حياتنا المعاصرة من انهيار وفساد خلقي، يستتبع بالضرورة انهياراً لقيم الحياة الكريمة الشريفة، وتلاشياً للعلاقات الإنسانية النظيفة. وإلى نحو هذا أشار الشاعر بقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

وكل هذا يُحتم أن تكون القضايا الخلقية في محل الصدارة والأولوية من رعاية الدعاة والمصلحين والمربين، مع الجمع في ذلك بين الوجهين الإيجابي والسلبي؛ وذلك بحفظ الفضائل وتنميتها وتقويتها، ومحاربة الرذائل ودرئها ومحاصرتها والوقاية منها.

الأولويات الظرفية

والمقصود بالأولويات الظرفية تلك القضايا التي تستحق الأولوية والعناية الزائدة لأسباب ظرفية تقتضي ذلك، ويمكن أن تتغير مكانتها وتتأخر أولويتها بزوال تلك الأسباب أو نقصانها.

وهذا النوع من القضايا يتحدد ويتغير تبعاً للتقدير الآني لكل قائم بالدعوة فرداً أو جماعة أو مؤسسة. وهو يدخل في "البصيرة" التي يجب التحلي بها والسير بمقتضاها عند أهل الدعوة، القائمين بها والقائمين عليها، عملاً بقوله تعالى (قُلْ

هَذِهِ مَسِيلِي أَدْعُوَالِي اللّٰهَ عَلَيَّ بِصِيْرَةٍ¹، كما يدخل في القاعدة المعروفة " لكل مقام مقال " .

ومن الأولويات الظرفية ما يسميه فقهاؤنا " واجب الوقت " . ويُقصد به بعض الواجبات التي يفرضها وقت مُعيّن وظرف مُعيّن، ويكون من اللازم القيام لها والقيام بها في وقتها وقبل فوات أوانها. ففي هذه الحالة يجب أن تكون الدعوة والدعاة في الموعد، وأن يقوموا بواجب التنبيه والتوعية، والتحريض والتعبئة، والترغيب والاستنفار، حتى ينهض الناس لهذا الواجب ويُعطوه حقه في وقته المناسب، لإنجاح ما يجب إنجازه من مبادرات أو إفشال ما يجب إفشاله من مؤامرات.

ومما يدخل في واجبات الوقت التي يجب على الدعاة إعطاؤها الأولوية في حينها، مناصرة المسلمين والشعوب الإسلامية الشقيقة فيما ينزل بها من محن ومظالم وكوارث. فهذه المناصرة لا ينبغي التعامل معها باعتبارها واجبات عادية، بل واجبات ذات أولوية ظرفية، لأن عدم المناصرة في الوقت المناسب وبالقدر المناسب يجعل فرصة الإنقاذ والنجدة والنصرة تفوت وتضيع.

ولا شك أن المثال الأكبر لهذا النوع من الأولويات الدعوية ومن واجبات الوقت، هو مناصرة القضية الفلسطينية. ذلك أن قضية فلسطين تمثل أكبر نكبة وأكبر مظلمة نزلت بالمسلمين في العصر الحديث. ثم إن دعم الظالمين المعتدين والتحالف الاستراتيجي معهم، تلتزم به وتنخرط فيه كليةً أكبر قوة عسكرية وسياسية واقتصادية في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية)، ومعها أو من ورائها كافة دول الغرب، وغيرها من الدول والمنظمات. وكل هذا في مقابل مواقف الحكام العرب والمسلمين التي تتراوح في معظمها بين السلبية والتعاون مع الأعداء. وفي

¹ - سورة يوسف، الآية 108.

حالات قليلة قد نجد شيئاً من المساندة السياسية أو المالية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

أمام هذا كله، يصبح من أوجب الواجبات وأولى الأولويات، تجنيد الدعوة والدعاة لخدمة القضية الفلسطينية ومناصرة الشعب الفلسطيني، بكل وسيلة ممكنة وبكل خطوة مفيدة، من خلال دعوة المسلمين كافة واستنفارهم للإسهام في ذلك.

ومن الأولويات الظرفية للدعوة وللخطاب الدعوي معالجة ما يشغل الناس -في وقت من الأوقات- من وقائع وأحداث، ومن قضايا وتساؤلات، ومن إشكالات وشبهات. فأهل الدعوة لا ينبغي أن يتركوا المجال فارغاً لغيرهم، ولا ينبغي أن يتركوا الناس حائرين، أو عرضة للتضليل أو للتوجيه المنحرف.

فإذا وُجد شيء مما يشغل الناس على نطاق واسع، ويؤثر على عقولهم وحياتهم ونظرتهم وموقفهم، فلا بد لأهل الدعوة أن يعطوه الأولوية بالدراسة والفهم أولاً، ثم بالتوعية الصحيحة والتوجيه السليم ثانياً.

ولا يخفى أن بعض الأولويات من هذا النوع، قد يكون عالمياً، وقد يكون وطنياً، وقد يكون محلياً، وقد يكون فئوياً. وأن بعضها قد يطول في الزمن فيمتد سنين أو عقوداً، وبعضها قد يكون عابراً لا يتجاوز السنة أو السنتين.

وعلى العموم فالأولوية هنا تعطى بقدر ما يكون للقضية من تأثير عميق وواسع في الحال أو في المآل. فإن فقدت القضية أهميتها وتأثيرها، فيجب أن تعود إلى حجمها الأصلي.



خاتمة

وختاماً، فإن حركة التوحيد والإصلاح التي تجعل الدعوة طليعة وظائفها الأساس الثلاث (الدعوة والتربية والتكوين)، يُسعدنا أن تخرج هذه "الرؤية الدعوية" إلى أعضائها والعاملين في صفوفها أولاً، وإلى عامة المسلمين وسائر المهتمين ثانياً.

وقد أظهرت هذه الجولة في بعض قضايا الدعوة وجوانبها، كم هناك حاجة إلى تحرير هذا المجال الأساس والحيوي في ديننا؛ تحريره من الرؤى والأفكار المضيقية، ومن العادات والنفسيات المكبلة، مع ترقية الخطاب الدعوي وترشيد أولوياته ومضامينه.

ومما يحتاج إلى تحرير وتوسيع وتنويع في المجال الدعوي: وسائل الدعوة وأساليبها ومدخلها. وهو ما نريد تأكيده وإعادة هنا حيث جاء في ميثاق الحركة: "فالوسائل والسبل لا حصر لها ولا حد لتغيرها وتطورها"¹.

فالدعوة لكي تتحرر وتتسع وتتطور، يجب أن تكون دائمة التوسيع والتجديد والتنويع في وسائلها ومدخلها، ومسالكها، كما قال يعقوب عليه السلام (يَا بَنِيَّ لَا تَخْلُؤُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَرِّ إِنْ أُلْحَمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)²، فالعلاقة العائلية، والصدقة والجوار والعلاقات والروابط المهنية، والمناسبات الاجتماعية والمسجد، والفصل الدراسي، والجمعية، والحزب، والنقابة... كلها وغيرها مما لا يحصى هي

¹ - الميثاق، ص: 88.

² - سورة يوسف، الآية 67.

أبواب ومداخل للدعوة وللعمل الدعوي. وكلما كثرت الأبواب والمداخل وتوسعت، فإن الدعوة تكون بخير.

ويجب أن تُعتمد الأساليب المعتادة من خطبة وموعظة ونصيحة، وأن تعتمد الأساليب الحديثة من أشرطة مسموعة أو مرئية، ومن إذاعة وتلفزة، وأن تعتمد الأساليب الأحدث كشبكة الأنترنت بمواقعها وبريدها الإلكتروني. كما أن الوسائل المكتوبة يظل لها دورها ومكانتها كالكتاب والمجلة والجريدة والنشرة والبيان والرسالة.

كما يمكن أن تتم بواسطة الأشكال الفنية من أنشودة وقصة ومسرحية وغيرها...

لكن يبقى أن أهم ما يجب إعداده والتعويل عليه، هو الإنسان الرسالي، المؤمن بوجوب الدعوة وضرورتها، وأهميتها وقيمتها، وبفضلها وثوابها، الإنسان المتحرر من الخوف والخجل، والعجز والكسل، والتردد والتهيب، الإنسان الذي يرى في لحظات الدعوة إلى الله فرصاً ذهبية، يسارع في اغتنامها لنفسه ولغيره قبل أن تضيع.

وبالله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وحرر في ذي الحجة 1423 هـ / فبراير 2003 م

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

n

الفصل الأول : الدعوة فرضيتها وأهميتها

- 7.....تعريف:
- 13.....وجوب الدعوة على جميع المسلمين
- 14.....فضل الدعوة وثوابها
- 17.....الوظيفة الدعوية بين الموجود والمنشود
- 19.....ضعف الحوافز الإيمانية
- 20.....ضعف المبادرة الذاتية والحوافز التنظيمية
- 20.....النزعة الانتقائية و النخبوية في الدعوة
- 21.....وهم براءة الذمة من واجب الدعوة
- 22.....طغيان الثقافة الدنيوية المادية
- 22.....شروع السلبية والأنانية

الفصل الثاني : الخطاب الدعوي موصفاته وألوياته

- 25.....مواصفات الخطاب الدعوي
- 25.....1 - خطاب إيماني
- 27.....2- خطاب واضح
- 28.....3- خطاب رأفة ورحمة
- 29.....4 - خطاب معتدل متوازن
- 32.....5 - خطاب متدرج
- 33.....6 - خطاب إيجابي
- 36.....7 - خطاب حكيم
- 38.....ألويات الخطاب الدعوي
- 38.....الألويات الثابتة
- 43.....الألويات الظرفية

46.....خاتمة



حركة التوحيد والإصلاح

شارع المقاومة، زنقة أبيدجان العمارة 45 رقم 3 محيط، الرباط، المغرب

هاتف: 05 37.73.78.85 فاكس: 05 37.26.26.42

E-mail : alislah.org@gmail.com